قصة

مسرات الحياة الأربع

جليل القيسي

عندما رنّ جرس الباب الخارجي، كنت غارقاً باستمتاع عميق، ومثير مع ريتشارد الثالث، ودنياه المليئة بالرّياء، والنّفاق... هذا الشرير الذي يفتخر بشروره، وتحوّله السّريع في العواطف، والمشاعر والأفكار، الغارق في الهوس والهذيان... حقّاً من منّا كبشر لا تضمّ نفسُه نفوساً كثيرة؟ أمّا أن يكون الإنسان مثل ريتشارد الثالث: غابة من الأنفس المعقّدة فشيء مريع. إنّه لسبب وبغير سبب ينشطر على نفسه، ازدواجيّ، كذّاب، لا يثق بنفسه، وهو، يا إلّهي، رمالٌ من الذوات...

رنّ الجرس للمرّة الثانية رنيناً طويلاً مزعجاً وموتّراً للأعصاب. نهضتُ بتثاقل وجررتُ خطواتي إلى النّافذة المطلّة على صحن البيت والباب الخارجي. لم أرَ أحداً.. حتما الصّغار كعادتهم، مع بداية الرّبيع يصبحون مثل الزنابير الهائجة: يتموّجون في الأزقّة، ويعبثون بكلّ شيء في طريقهم، ويضغطون على أجراس البيوت... أردتُ أن أرجع إلى الغرفة. رأيت أصابع غليظة من الجهة اليمنى تمتدّ لتكبس على الجرس.. سألت: من هناك؟.. ركضت إلى الممرّ، وفتحت الباب. صافحني وجه داكن السّمرة، ابتسم لي ابتسامة حلوة، وقال:

ـ هل هذا بيت الأستاذ واثق شجاع العزّاوي؟

هززت له رأسي، أنْ نعم، وقلت:

ـ أيّة خدمة، أستاذ؟

تأمّلني بعينيه السّوداوين، ومرّر أصابعه خلل شعره الأسود القصير الذي تبلّج قليلاً من الفودين، وقال والابتسامة لم تفارق وجهه:

ـ أعتقد أنّني أكلّم السيّد بديع العزّاوي.. ابن الأستاذ.. أليس كذلك؟

ـ بالضّبط..

ركّز بصره عليّ طويلاً، وأعاد برفق رسم الابتسامة نفسها... لكن الابتسامة هذه المرّة كانت أكثر رقّة وتودّداً... قدّم لي نفسه:

ـ مصعب عبد الرّحمن...

ـ تشرّفنا أستاذ مصعب.

مدّ يده وربّت على كتفي، وعبث بشعري المنفوش، وقال:

ـ هل الوالد في البيت؟

ـ لا.. لم يأت بعد... قد يرجع بعد ساعة..

ـ آه.. ساعة!

ـ ربّما أكثر أو أقلّ.. لا أعرف... أظنّني سمعت أنّه يغادر الدّائرة مبكراً...

ـ مبكراً...

بلّل شفتيه الاسفنجيّتين بلسانه، وواصل اختلاس النّظرات منّي، وهو يبتسم.. قال وهو يجاملني بلطف غريب:

ـ يقولون إنّك شابّ تمتلك تواضعاً جميلاً، وأنّك ذكيّ جدّاً، ومثل والدك تحبّ الأدب كثيراً..

ـ أوه... شكراً...

ـ ومثقّف ثقافة جيّدة نسبةً إلى عمرك الصّغير...

ـ أرجوك يا أستاذ مصعب، من غير مديح...

أضاف بعد صمت قصير، وهو يمرّر أصابعه السّمراء الغليظة فوق خدّي، وجبيني:

ـ أبهذه الطّريقة تستقبل أصدقاء أبيك؟

ـ بأيّة طريقة؟!

ـ يا سيّد بديع من أصول الضّيافة أن تقول لي تفضّل واجلس... أليس كذلك؟

ـ بصراحة، أنا لا أعرفك... لم يسبق أن رأيتك عندنا...

ـ وهل هذا سبب لكي تستضيفني؟

ـ تقريباً...

أطلق ضحكة جافّة، ومرّر أصابعه خلل شعره القصير، وقال:

ـ من حقّك... أنت إذن تعرف جميع أصدقاء والدك؟

ـ معظمهم...

ـ رائع... للمناسبة يا سيّد بديع كم تبلغ من العمر؟.

ـ قريباً سأصبح في العشرين..

في عينيه اللّتين ظلّتا تروزانني بنظرات دقيقة وودودة ومثقلة بالمعنى، رأيت أيضاً رجاءً حارّاً يقول: «ألا تسمح لي بالدّخول؟»... بل «يجب أن تسمح لي بالدّخول!» أبعد نظراته عنّي، وانشغل بتأمّل الحديقة.. منذ أن أحببت الأدب، والأدباء، كنت دائماً أرى في عيون الأصلاء منهم نظرات حبيبة، وضارعة بحبّ،

ويتوهّج على وجوههم فرحٌ حقيقيّ، أو حزنٌ حقيقيّ، أو مزيج من الفرح والحزن يصعبان على الوصف... عندما التفت إليّ كنت أمرّر مسرحيّة ريتشارد الثالث أمام وجهي... قال:

ـ آه... تقرأ ريتشارد الثالث...

ـ أتعرفه؟..

ـ لا... هاها...

ـ أوه... إنّه إنسان مخيف جدّاً...

ـ ما الشيء المخيف فيه يا سيّد بديع؟

ـ أشياء كثيرة... إنّه مثلاً نذل.. كلبيّ.. كذّاب. قاتل... يريد أن يتعملق على أكتاف الآخرين وآلامهم.

أطلق السيّد مصعب ضحكة حلوة، وقال بصوت رقيق:

ـ أنت بديع بحقّ... وعندي رغبة شديدة لأعرفك أكثر.

شعرتُ بالخجل من إطالة الوقوف معه أمام الباب الخارجي، فدعوتُه رغماً عنّي. استغلّ دعوتي فوراً ودفع الباب، وبخطوات واسعة اجتاز صحنَ البيت بمشية عسكريّة... أخذتُه إلى الصّالون... طلب قدح ماء... شرب بسرعة وتنفّس بعمق، وقال مغمغماً: ربيع حارّ... ونحن في أوّله بعد.

قطّب وجهه كمن يتضايق من شيء مفاجئ، وبسرعة أخرج علبة سجائره وأشعل واحدةً، وراح من خلال الدّخان يدقّق بصره في جميع محتويات الصّالون. ذكّرتني دقّةُ نظراته بكلمات والدي: لكي تكون دقيقاً ككاتب، يجب أن تمتلك موهبةَ التفرّس في النّاس، والأشياء وفي الحياة... نظرتُ إليه طويلاً. بدا كثير الشّبه بشاعرٍ كان يتردّد على والدي قبل سنوات، وكنت رغم وجهه الجافّ، الغاضب، وصمته وسرحانه، أحبّه، ثمّ أحببتُ شعرَه الذي من خلاله عرفت أنّ وراء تقطيبته وغضبه فرحاً صافياً في قلبه وخياله وروحه... كنت كلّما زارنا أنظر في عينيه، وأبحث عن ذاك الصّفاء البلّوري... كم كنت أرتعش، وألتهب من الفرح تارة، ومن الحزن تارة أخرى عندما يبدأ بقراءة قصيدة جديدة لوالدي الذي كان يتألّم، وينفعل، ويُردّد بصوت مخنوق: «أَعِدِ الأبيات الأخيرة رجاءً»...

وهذا الغريب المدعوّ السيّد مصعب عبد الرّحمن، أهو شاعر؟ قاصّ؟ ناقد؟ روائيّ؟ فنّان تشكيليّ؟ موسيقيّ؟...

أشار بيده الممسكة بالسّيجارة إلى صورة قديمة على الجدار، وقال:

ـ صورة والدك؟

ـ ماذا؟... لالا... إنّها صورة جدّي...

ـ آه... نظرات الوالد نفسها... الهدوء نفسه... والثّقة بالنّفس..

ـ متى تعرّفت على والدي...؟

ـ من مدّة...

تحت صورة جدّي رأى لوحة للفنّان ضياء العزّاوي.. تأمّلها طويلاً، وقال:

ـ هل أنا على صواب إذا قلت إنّه رجلٌ متكوّر على نفسه في غرفة خالية من كلّ شيء، ومظلمة إلاّ من ذاك الضّوء الصّغير؟

ـ بالضّبط... واسم اللّوحة «السّجين»... إنّها لضياء العزّاوي.

ـ آآآآ... ضياء... العـ... زّاوي... نعم...

نهض واقترب من اللّوحة، ودقّق فيها بإمعان شديد، وقال:

ـ لقد جسّد الزّنزانة بطريقة موحشة، بل مخيفة.

ـ الزّنزانات يا سيّد مصعب موحشةٌ، ورهيبة...

ـ هل زرت زنزانة؟

ـ هاها... لالا.. لكنّني تعرّفتُ على غرف السّجن عندما كنت أزور والدي.

تجوّل السيّد مصعب في الصّالون، واستدار من غير استئذان منّي باتّجاه غرفة المكتبة التي كان بابُها مفتوحاً، ودخل قائلاً بحركة دبلوماسيّة رشيقة:

ـ آه.. المكتبة... المكتبة...

ألقى نظرات سريعة في جميع زوايا الغرفة.. رأى لوحة «بائعات المانجو» لغوغان مصوّرة بحجم كبير في إطار خشبي أبيض.. قال بثقة:

ـ أكيد هذه اللّوحة لرسّام إنكليزي مشهور يرسم المناظر...

ـ إنكليزي!!؟ لا... إنّها لپول غوغان... رسّام فرنسي.

عالج خجله بابتسامة صغيرة وبمنتهى الأدب واللباقة. التفتَ إليّ وربّت على كتفي قائلاً:

ـ أوه، يا لغبائي، يا لَغبائي.. نعم، نعم، پول غوغان!

وأضاف: أرجوك.. اسمح لي أن ألقي نظرة على الكتب..

قلت مع نفسي: في الحقيقة ليس ثمّة ضيْر، لكنّ دخوله بتلك الطّريقة السّريعة، وبذاك الفضول القطّيّ، تجاوزٌ كبير للكياسة والأصول والعرف الأُسري.. صحيح أنّ الكتب تمتلك قوّة جذب قويّة لعشّاقها، غير أنّ السيّد مصعب كان أضعف من أن يضبط نفسه... وبدبلوماسيّة رقيقة لفّني بذراعيه، وباليد الأخرى ربت على ظهري كأنّه صديق من سنوات، وقال:

ـ أيّها المتواضع الجميل... يا من تملك طيبة حبيبة... يا مَنْ تربّيتَ على الكتب... أعرفُ حساسيّةَ والدك تجاه هذه الغرفة... لن أمسَّ كتاباً واحداً... بل لن أمسَّ خشبة المكتبة.. أبداً... مجرّد نظرات... نظرات...

عاد فربّت على ظهري، وأطلق ضحكته القصيرة الجافّة ذاتها، وقال وهو يشعل أضواء الغرفة كلّها: آه... غرفة جميلة... جميلة جدّاً... هذه لوحة أخرى... ... ... حتماً أنت الآخر تحب اللّوحات... أوه... حاكٍ، وجهاز تسجيل... أعرفُ أنّ والدك متيَّمٌ بالموسيقى...

قلت مع نفسي: ياه... إنّ السيّد مصعب يمتلك فضولاً غريباً.

قال: هل يسمح لك بأن تمسّ أسطواناته؟

وحدة...

بسام الوردي

وحيدٌ إذن
سيّدي الماء؟
لي غربة الصّبر. أشجارُه اتّسقت
غرفة في الزّمان
فأسميتها الأربعاء..
ولي وحشتي دمعةٌ تلمع الآن.
.. قرطاً بأذنيكِ
ـ سوداء ـ قُدسها هاجس
مترع بالنّداء
سيّدي الماء..
سيّدتي.
أيّها العطش المستحيل
ويا امرأة الغفوة المستحيله
إنّ لي جدولاً مضمراً قد يسيل
ترقّبته في خطوط الأكفّ النحيله

* * *

مسحت على جبهتي كي أُصلّي
وكان وضوئي غبار الغريب المسافر
تعبّدتُ في طرف الكون
إنّ الهياكل مرسومة عندها
ها هنا في هلال الأظافر
وإنّ مُصَلّايَ منها القلامه
أستجير بها..
أستعيض بها.. عن جناحي المغامر

* * *

سيّدي.. سيّدي الماء
مهلاً أجبني
كيف في نقطة جمعتَ البحار القصيّه!؟
وكيف تمكّنت من كافر أن يصلّي
وحرّكت فيه الّذي لا تحرّكه المعجزات
الخفيّه
وحيدٌإذن؟
أبداً
إنّ تاريخ كلّ الخلائق ينهض في جسدي الآن
ويخرج جيش المحبّين من وجعي
اسمعي!
إنّ جيب الصعاليك يصلح للنوم
والخيمة البدويّة لا تعرف الانفراد
اسمعي!
هذه خيمتي
ترك الشّعراء بها نبضهم..
والكؤوسَ الأخيره
وائتمنوا أدمعي
اسمعي!
إنّ ذا الوثني
إذا ما انحنىٰ لضياء المحبّه
واستطعم الماء في الكائنات الحبيبه
لا يدّعي..

بغداد

ـ ماذا؟... آه... من سنوات... نعم...
ـ آه... ماذا أرى؟ عُدّة رقع شطرنج...

بحركة مسرحيّة بدأ التحديق في الرفّ الأوّل من الكتب.. قال بتعجّب وهو ينظر إلى تمثال نصفي لمكسيم غوركي: آه عمل رائع... رائع..

التفتَ إلى صورة فوتوغرافيّة للقاصّ تشيخوف قائلاً: هذه الصّورة لمن؟

قلتُ بتعجّب شديد مع نفسي: ماذا يقصد لمن؟... قلت: إنّها لتشيخوف. أطلق ضحكته القصيرة الجافّة، وحنى رأسه، وقال بخجل: أوه يا لغبائي. وأضاف معيداً حركته الممجوجة بالتربيت على كتفي:

ـ أيّهما تحبّ أكثر غوركي، أم تشيخوف؟
ـ كليْهما...

غمغم، وهو ينحني بامتداد قامة المكتبة.. قال:

ـ هذه الصّورة لمن؟... حتماً إنّها لفيلسوف كبير.. أليس كذلك؟
ـ لالا يا سيّد مصعب.. هذه صورة تشايكوفسكي... موسيقار..

أطلق ضحكة هزليّة، وقال ماطّاً عنقه القصير: يا... لـ... غبا... ئي... ضحكتُ أنا الآخر بقوّة للطريقة التي لفظ بها كلمة: يا لغبائي، وشاركني بدبلوماسيّته الرّشيقة بضحكة جميلة، وقال: السيّد بديع، أريد أن أعترف لك بتواضع شديد أنّني جديد في عالم الأدب.. جئتُ إلى الوالد ليختصر لي الزّمن بخبرته، وثقافته... أقصد ليرشدني...

ربّت على كتفي وانصرف إلى الرفّ الثاني من الكتب... قلتُ لنفسي وأنا أراقبه:

ـ هل السيّد مصعب عبد الرّحمن يمزح معي، أم أنّه جديد فعلاً في عالم الكتب، أم أنّه يمرح ويزجي الوقت ريثما يجيء والدي؟...

أخرج ورقةً وبدأ بتسجيل أسماء عدد من الكتب... وكان بفرح طفولي يردّد:

ـ يا لهذه الرّوائع!.. هل بالإمكان الحصول عليها؟ أين؟ ما هذا الكتاب: **الذات والموضوع**. آه... هذا **الحرّيّة والضرورة**...

غـرامشـي... **دراسـات فـي الفـاشيـة**... الـزمخشـري... الديالكتيك... **أنّا كارنينا**... **مدام بوفاري**... بليخانوف... **الفكر المسيحي في القرون الوسطى**... الجاحظ.

مطّ قامته وهو يردّد: كتب كثيرة... ... ومرّة أخرى أرسل بصره في غرفة المكتبة بدقّة روائي.. رأى صورة غريبة للشاعر الفرنسي آراغون وقد تهدّل شعرُه القطنيُّ الطويل فوق كتفيه، وهو يبتسم بثقة، ووجهه المتعب ممتلئ بشبكة من التغضّنات. قال بهمس: من هذا العجوز..!؟

ـ ألا تعرفه؟

ـ يشبه داروين..

ـ هاها... داروين؟

ـ لالا.. عفواً... إنَّه أَيْنِشتايْن.. نعم أَيْنِشتايْن.

ـ أَيْنِشتايْن؟.. لا... إنَّها للشّاعر آراغون...

صفع جبينه عدّة مرّات وهو يردّد بإلقاءٍ مسرحيّ: يا... لـ... غبا... ئي. يا... لـ... غبـ... ا... ئي...

رنّ جرسُ الباب. قلتُ للسيِّد مصعب إنَّ والدتي رجعتْ. خطا بسرعة إلى الصّالون، وجلس بهدوء... قلتُ لوالدتي أمام الباب إنّ لدينا ضيفاً. سلّمتني أكياساً مليئة بالبرتقال والرّمان، وهي تقول:

ـ أهلاً وسهلاً به... حتماً صديق لوالدك..

استقبل السيّد مصعب والدتي بأدب جمّ، وبانحناءة مسرحيّة في غاية الرّقة. قال: سيِّدتي الفاضلة أقدّم نفسي مصعب عبد الرّحمن..

ـ أهلاً بك يا أستاذ... آمل أنَّ «بديع» كان صديقاً جيِّداً معك.

ـ إنَّه بديع بحقّ... محدِّث لبق، وذكي، ومثقّف...

أضاف مرقّقاً صوته:

ـ حبّ كبير دفعني للمجيء والتعرّف على أستاذ واثق، وهو، كما تعرفين مثقّف كبير... في الحقيقة جازفتُ رغم وقته الثّمين، وانشغالاته.

ـ لا عليك، أستاذ مصعب. دائماً لديه فائض وقت للطيِّبين، والمبدعين. تفضّل اجلس...

ذهبتْ والدتي إلى المطبخ، وعادت بعد قليل بقدحين من العصير. قال السيِّد مصعب:

ـ حرّ مبكّر جدّاً هبط على المدينة..

ـ نعم... لم نرَ من الرّبيع أيَّ شيء...

أخذ رشفة كبيرة من العصير.. قال: الرّبيع مجرّد أيّام... ... أيّام.

وكعادة والدتي في مجاملة جميع أصدقاء والدي بأسلوبها اللّطيف السّاحر، راحت تكلّم السيِّد مصعب. فقالت:

ـ يقال إنَّ هناك عصفوراً يدعى العصفور الصّامت، لأنَّه لا يغرّد أبداً.. لا في الرّبيع، ولا في زمن الحبّ. ربيعنا أيضاً مثل ذاك العصفور الصّامت: يتلألأ لأيّام ثمَّ يختفي..

قال السيِّد مصعب: يا للتشبيه الجميل!.

أضافت والدتي وهي تتهيّأ للخروج إلى المطبخ:

ـ رشقات سريعة من المطر، دغل أخضر لعدّة أيّام مع رائحة هواء منعشة، ثـمَّ فجأة الصّيف المتعب... أنا أسمّي الرّبيع فصل السّنونو...

ـ السّنونو!!... لماذا السّنونو؟

ـ لأنَّ السّنونو والرّبيع صديقان..

التفتت والدتي إلى مسرحيّة ريتشارد الثالث، وقالت وهي تتصفّحها:

ـ أبهذه السّرعة أوشكتَ أن تنهي المسرحيّة؟

ـ إنَّها مثيرة... مثيرة... تصوّري يا ماما أحياناً أنَّني من شدّة غضبي وحقدي على هذا الملك المجنون كنت أريد أن أمزّق الأوراق..

ـ يا لحرارة دمك يا عزيزي... لماذا؟.

ـ تقولين لماذا؟... وأنتِ كنت أشدّ غضباً منّي عليه؟!. هل حقّاً لا يغضب الإنسان من كائن قاسي القلب إلى درجة التحجّر، مصاب بهوس القتل والتنكيل؟ هل رأيت إنساناً يمتلك رياءً مثل رياء هذا الملك؟ إنَّه متفرّج سفيه على عذابات الآخرين. اسمعي يا ماما...

ثمَّ قرأتُ لها وللسيِّد مصعب المقطع التّالي:

آه، لا... إنّني أكره نفسي
لأفعال مقيتة اقترفتُها بِنفسي...

أطلقتْ والدتي ضحكةً ناعمة، وقالت: بل كلّ أفعاله كانت مقيتة. إنَّه مشوّه، سوداوي، متمحور حول ذاته.. وأضافتْ بسخرية لطيفة: المهمّ، عندنا ضيف، ويجب أن أذهب إلى المطبخ، وأتركك مع السيّد مصعب...

قال السيّد مصعب:

ـ أمّ بديع... أرجوك... لا تحسبي لي أيّ حساب معكم.

ـ مستحيل. أنت اليوم ضيفنا... هل يعقل ألاَّ تأكل معنا لقمة، وأنت تزورنا لأوّل مرّة؟

خرجتْ بسرعة. أشعل السيِّد مصعب سيجارة أخرى، وأطرق برأسه لفترة، وأطلق تنهيدة طويلة، ثمَّ سألني وهو يرنو إليّ من خلال موجات دخان سيجارته:

ـ أعرف أنَّ الكثيرين من الشّباب يحبّون والدك.

ـ جدّاً جدّاً.. الموهبون منهم بالذّات.. هو يرعاهم بحبّ حقيقيّ، ويرى فيهم ثروة حقيقيّة للوطن.

ـ وأنت يا سيّد بديع... ماذا تكتب؟

ـ لـم أكتـب حتّـى الآن أيّ شـيء.. أنـا بحـاجـة إلـى الـوقـت، والتجربة، وثقافة متينة... وأنت يا سيِّد مصعب... مادا تكتب؟

ـ لديّ مشاريع لكتابة روايات بوليسيّة..

ـ هاها.. روايات بوليسيّة؟ لماذا بوليسيّة؟

ـ لم لا... لماذا تتعجّب! ألا تحبّ الرّوايات البوليسيّة؟

ـ بصراحة لم أقرأها حتّى الآن.. لكن لماذا بوليسيّة يا سيِّد مصعب؟

ـ الرّوايات البوليسيّة تحتاج أيضاً إلى خيال واسع، فهم عميق في ضروب الخدع، والمراءاة، والخطط، وحبكة دقيقة متشابكة، وتنقّلات سريعة، وإتقان جيّد في الدّسيسة، وأجواء مثيرة ومعقّدة... ألغاز... قسوة قلب.. الرّواية البوليسيّة عالم صعب وجميل..

ـ هل بدأت بواحدة؟

ـ ليس بعد... لديّ مواضيع جيّدة وناضجة...

ـ هل تعتقد يا سيِّد مصعب أنّك موهوب؟

ـ ربّما في كتابة القصص البوليسيّة..

كانت والدتي تتحرّك مثل المكوك لتهيّئ أكلات متنوّعة كعادتها عندما يجيئنا ضيفٌ جديد.. توقّفتْ قليلاً عندما رأتني مندمجاً بحماس في الحديث مع السيِّد مصعب، ثمَّ قالت: ألا تعتقد أنَّ بديعاً إنسان يعرف كيف يدخل الفرح إلى قلوب الآخرين؟

ـ طبعاً.. ويعرف كيف يتكلّم في ميادين شتّى..

ـ إنَّه رغم صغر سنِّه، بوسعه أن يتكلّم قليلاً في كلّ موضوع.

ـ بل يصعب أحياناً التعامل معه... ها ها ها ها..

ـ إنَّه كما يقول والده يمتلك مثل البوذي الواعي حبَّ مسرّات الحياة الأربع..

ـ وما هي هذه المسرّات؟

ـ الموسيقى، الشطرنج، القراءة، الرّسم.

رنّ جرس الباب. قالت والدتي: إنَّه والدك. أسرعتُ وفتحتُ الباب. استقبلني كعادته بدعاباته اللّطيفة. أخبرته أنَّ لديه ضيفاً. قال مازحاً:

ـ أهلاً وسهلاً به.. أشمّ رائحته من هنا.

ـ ضيف جديد.

ـ ثمَّ ماذا؟... لنجعل قلوبنا عامرة أكثر بهذا الجديد... هيّا تحرّك يا عزيزي.

ولأنَّه اعتاد استقبال الضيوف باستمرار، فقد رحّب بهدوئه الجميل وهو يلقي رواية **شرق المتوسّط** فوق أقرب كرسيّ ويأخذ يد السيِّد مصعب بحرارة متفرّساً بوجهه الدّاكن السّمرة... لكنّ السيِّد مصعب، عكس معظم زوّاره ومعارفه، قليل الخجل، ويتصرّف بثقة، ودبلوماسيّة. ورغم ضعف ثقافته فقد كان يتكلّم من غير تَجَبْجُب... وقد قدّم والدي له سيجارة، أخذها بسرعة وراح ينفث الدّخان عالياً باتّجاه السّقف... ثمَّ صاحت والدتي من المطبخ:

ـ لماذا تأخّرت يا عزيزي...؟

ـ ألا تعرفين لماذا؟

ـ حتماً، كالعادة، الحافلات.

ـ طبعاً... ماذا أفعل وهي تسير مثل الزلنطح..

أطلقتُ ضحكة لاإراديّة، وسمعتُ أيضاً رنين ضحكة والدتي وهي تردّد: «زلنطح»، زلنطح... هذه كلمة جديدة يا واثق...

سأل السيِّد مصعب عن معنى كلمة «زلنطح» فأجابه والدي بسخريته الجميلة:

ـ الزلنطح يا عزيزتي حشرة، من الصّعب أن يرى الإنسان حركتها أثناء دبيبها إلاَّ بصعوبة بالغة. والتفت إلى السيِّد مصعب، وقال: وفي هذا الموسم يفور الدّم في العروق، ويجعل البعض «باروت»، والحافلة مثل الزلنطح... ها ها ها ها...

سألتُ والدي إذا أنهى رواية عبد الرّحمن منيف **شرق المتوسّط** فأجابني بكلمة «نعم» حارّة. صاحتْ والدتي بصوت احتفالي كأنَّها تمثّل في مسرحيّة كوميديا:

ـ إلى المائدة يا سادة، لكن ليس بسرعة الزلنطح...

ضحكنا جميعاً ونحن نأخذ أماكننا إلى المائدة، باستثناء السيِّد مصعب الذي طلب السّماح من والدي باستعمال جهاز الهاتف ليكلّم صديقاً له. زرعت والدتي عدّة مواعين.. فاحت رائحة أكلات شهيّة.. جاء السيِّد مصعب وأخذ مكانه قبالة والدي. بدأنا الأكل باستمتاع.

قلتُ لوالدي: بابا، السيِّد مصعب لديه مشروع كتابة رواية بوليسيّة.

ابتسم والدي وهو يمصّ جناح دجاجة، قال وقد تحوّلت بسمته إلى ضحكة قصيرة: لم لا... وهل تبقى كتابة الرّوايات البوليسيّة حكراً على آغاتا كريستي، وسيمنيون، وفلمنغ؟

كان السيِّد مصعب منهمكاً في الأكل بشهيّة جائع حقيقي. أضاف والدي:

ـ الرّواية البوليسيّة هي الأخرى تحتاج إلى موهبة فنّيّة عالية.

التفت السيّد مصعب إليّ، وقال: ألم أقل لك كلمات والدك نفسها؟.

قال والدي: لكن يا سيِّد مصعب، لدينا كشعب مشاكل كثيرة تحتاج إلى معالجة، وهي أهمّ بكثير من المواضيع البوليسيّة..

ـ م م م م... نعم... لكنَّ الرّواية البوليسيّة تستهويني..

أضاف وهو يبلع لقمة كبيرة: مشاكل.. مشاكل مثل ماذا؟

ـ مشاكل اجتماعيّة، اقتصاديّة، حياتيّة...

غمغم السيّد مصعب وهو يبحث عن فخذ دجاج... تدخلتُ سائلاً والدي رأيه برواية **شرق المتوسّط** قال:

ـ فيها براعة مهولة في وصف التعذيب واستعمال القسوة، أوه، بل الوحشيّة في استعمال القسوة.

تساءل السيِّد مصعب: وحشيّة.. لماذا وحشيّة؟.

ـ لمجرّد انتزاع اعتراف من إنسان... هل قرأت الرّواية؟

ـ نعم..

ـ حتماً ارتحت لها..

ـ إنَّها رواية... رواية...

ـ حتماً تألّمتَ كثيراً من معاملة إنسان بتلك الطريقة القاسية.. لا

قصيدتان

بشرى البستاني

(١)

أرقصُ طولَ اللّيلةِ وحدي
أنزفُ
تطلعُ في دميَ الأشجارْ
وتدورُ معي . .
تتدلّىٰ ثمراً مُرّاً . .
تنزفُ،
في آخرةِ اللّيلِ ندوخُ معاً . .
ونولّي الأدبارْ . .

(٢)

أبصرُ في منتصف اللّيلِ،
البحرَ يجيء لشرفةِ بيتي،
وأرىٰ الأمواجْ
تنداح على غرفةِ نومي
أفتحُ شبّاكي،
وأرى السّمكَ الميّتَ يطفو،
والتُّجّارَ يلمُّونَ الجثثَ المنخورةَ
يفزعُ واحدهم منّي . .

يعطيني واحدةً . .
عشرا
أرفضُ . .
أضحكُ في السِّرّ،
وأُقفلُ نافذتي . .
في اليومِ التّالي
أشري واحدةً من رأسِ الشّارعِ،
ثمَّ أُواصلُ سيريَ . . الموصل

أعرف من قال: حتّى الأشرار يجب ألاّ يعانوا معاناة شديدة. . وبطلنا لم يكن شرّيراً. أليس كذلك يا سيّد مصعب؟؟

ـ هم م م م م . . .

كان يغمغم ويمضغ، ويتبلّغ بلقمات متتالية. .

ـ السيّد مصعب.

ـ نعم. . . نعم. . أستاذ واثق.

ـ تُرى إلى أيّ شيء تُعزى تلك القسوة في معاملة إنسان؟؟.

ـ لا أعرف. .

ـ ألا تعتقد أنّ بعض الحكومات عندما تتعامل مع الإنسان بتلك الطريقة، تكون مثل المصاب بالإحباط؟

ـ إحباط! . . إحباط؟

ـ نعم إحباط. . .

ـ ماذا يعمل المصاب بالإحباط؟

ـ يسلك سلوك المنبوذ. .

ـ المنبوذ؟ . . . حسناً. . ماذا يفعل المنبوذ؟

كان السيّد مصعب يأكل بشهيّة غريبة، وبعجلة لا مبرّر لها، بينما كنت أنا ووالدتي نستمع إلى والدي بانتباه لاهب. .

ـ المنبوذ يا سيّد مصعب يفشل في تحقيق ما يقوله. وبعدَه، وكتعويض عن فشله، يقوم بأفعال مجنونة. . .

ـ مجنونة!؟ كيف؟

ـ حسناً. . طريقة التعذيب في الرّواية كانت تعويضاً عن الفشل. . إنّه ليس مجرّد خوف من إنسان واحد. . . لا لا. . . إنّه الإحباط ككل.

ـ حسناً. . . أستاذ واثق، لم لا تقول مثلاً، إنّ معاملة بطل الرّواية بتلك الطريقة الوحشيّة في الرّواية كانت بالنّسبة إلى الحكومة حقيقة، بل حقائق؟

ـ ماذا؟؟ . . حقائق؟

ـ حقائق بالنّسبة لها. . .

ـ دفعُ إنسانٍ إلى مصيرٍ قاس حقائق؟. . . لا. . أنا أرى أنّها عندما تفعل ذلك تخشى من لاحقيقتها. . . ومع اللاّحقيقة يبدأ الإحباط. . والخوف. .

انتهينا من شرب الشّاي، وتكلّمنا في مواضيع عامّة. سمعنا صهيل بوق سيّارة الإسعاف، وتواشيح دينيّة، وضرباً مستمرّاً على الدفوف حملتها موجاتٌ من الهواء من بيت جار على مبعدة أمتار يقيمون احتفالاً لأمنية تحقّقت. قال والدي بصوت دافئ، وهو يستمع إلى ضربات الدّف، والنّاس وهم يتغنّون بحبّ النبيّ: إنّ النّاس لديهم طرق كثيرة للنزول إلى أعماقهم، وتنشيط روحهم. . . الحبّ يستطيع أن يعمل كلّ شيء. . .

توقّفتْ سيّارةٌ أمام الباب. نهض السيّد مصعب وذهب بخطواته الواسعة إلى الممرّ قائلاً:

ـ أعتقد أنّ سيّارتي قد حَضَرت.

بعد دقائق عاد بوجه غاضب، نكد. وقال وهو يتنفّس بعمق، ومن غير ذرّة حياء، مخاطباً والدي:

ـ السيّد واثق شجاع العزّاوي، أنت مُعتقل. . . ويجب أن تأتي معي.

وببرود إنكليزي قدّم لوالدي هويّته الشّخصيّة، وقال: نعم يجب أن تأتي معي.

انتابَتْنا دهشةٌ أيبستنا جميعاً عندما اقتحم الغرفة عددٌ من الرّجال. رفع والدي رأسه وألقى نظرة طويلة وساخرة إلى وجه مصعب الذي خالطتْ لونه النّحاسيّ زرقةٌ قاتمة، وقال: لماذا يا سيّد مصعب؟

ـ المهمّ أنّك معتقل. . .

ـ السيّد مصعب، لا أعرف كيف خانتني فراستي فلم أكتشف وراء مظهرك المصطنع تلك العمليّة المقرفة. . .

وأضاف بكبرياء: تفضّل لنذهب. .

لم تنبس والدتي بهمسة واحدة، وكذلك أنا. . .

كركوك